المرأة والرجل في فكر الشهيدة الفيلسوفة
أديث شتاين Edith Stein
1942-1891

الأب حبيب هرمز

مقدمة

قديستنا هذه هي شاهدة للإيمان، الإيمان بعد الولادة الروحية، وهي علم من اعلام الكنيسة. راهبة بولندية فيلسوفة وشهيدة. ولدت سنة 1891، وتعمذت سنة 1922، ثم دخلت الرهبنة الكرملية سنة 1934 وتوفيت في معسكرات التعذيب النازية سنة 1942.. تم تطويبها سنة 1987 من قبل البابا يوحنا بولس الثاني. وفي سنة 1998 سماها البابا (تريزا بندكت الصليب). ويتم الإحتفال بذكراها سنويا يوم التاسع من آب. لماذا تحولت الى المسيحية، وقبلت الشهادة بقلمها ودمها؟ وما هو فكرها الذي يساعدنا على تقديم الإيمان لأبناء عصرنا حيث واجهت بشجاعة وذكاء عبر مقالاتها ومحاضراتها إدعاءات العصرنة وافرازات الحضارة المادية؟ لقد اطلعت على خلاصة رسالة الدكتوراه التي انجزتها بنجاح باهر. كانت تختص بالفلسفة الظواهرية، وهي صعبة للقاريء العادي . لذلك سأحاول السياحة في فكرها بأمانة حول بعض اهتماماتها بخصوص المرأة والمسيحية.

حياتها

تعتبر حياة أديث رمزاً للبطولة، فيوم ولادتها كان يوم صوم وتوبة لدى اليهود. كانت اصغر أخت لعشرة اولاد، تيتمت في سن الثانية واختبرت وفاة أربعة من أخوتها، وعندما تلقنت دروسها الدينية، تعلقت بالمزامير والأمثال خصوصا الفصل 31 حيث يمدح بالمرأة الصالحة .

ومع ذلك فعندما كانت أديث في سن المراهقة لم تقاوم عاصفة افكار المراهقة، فقد رفضت ايمانها اليهودي لعدم قناعتها بأبعاده المستقبلية وأهمها توجهاته الآخروية ودورها في مستقبل حياة المؤمن.

نتيجة لتفكيرها العميق بالموضوع دخلت كلية الفلسفة بتشجيع مدرسها المشهور ادموند هوسيرل أبو الفلسفة الظواهرية في جامعة فريبرك حيث عملت كمساعدة له. وهكذا حصلت على شهادة الدكتوراه في الفلسفة بموضوع (تسرب الإنفعالات أو التعاطف Empathy) حيث ناقشتها كمشكلة تواجه الإنسان بسبب عاداته الحسنة والرديئة.

عندما احتكت بالمسيحية أول الأمر، قرأت قصّة حياة القديسة ترازيا الأفيلية والقديس يوحنا الصليبي حيث تأثرت بهما كثيراً وساعداها للتحول للإيمان بالمسيح. تطوعت قبل دخولها الرهبنة للتعليم في مدرسة للفتيات الدومنيكيات لعشرة سنوات حيث ترجمت للألمانية كتاب (في الحقيقة) للقديس توما الإكويني. كما اصدرت كتاباً فلسفياً للجمع بين فلسفة القديس توما وأستاذها هوسيرل.

إنتقلت الى هولندا للتخلص من النازية حيث اصدرت كتابا آخر عن القديس يوحنا الصليبي. ولكن صدمتها كانت عندما اصدر هتلر قرار الموت ضد اليهود ثم اعقبه قرار ضد المسيحيين من أصل يهودي سنة 1942 حيث ألقي القبض عليها واحرقت مع أختها في محرقة اشفيتز الغازية في نفس السنة.

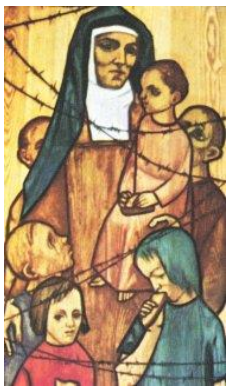

نبذة عن إهتمامها الفكري

اصدرت أديث في حياتها تسعة كتب فلسفية ومعرفية أخرى ركزت على المرأة، حيث تناولت الموضوع من جانب فلسفي بسيط ومن وجه نظر مسيحية. فقد كان وصولها للمسيحية بفضل الفلسفة وإهتمامها بالظواهرية phenomenologyحيث إنفتح فكرها نحو أمكانية تسامي الوقائع، وقد ساعدها هوسرل الفيلسوف

المشهور الذي ايضاً كان قد تحول الى المسيحية، كما أينعت افكارها في وقت انتشار أفكار عالم النفس المشهور سيجموند فرويد.

اهتمت أديث بعمل الفكر البشري والعوامل التي تؤثر على القلب وكيفية شفاء النفس. وهذا ما جعل عملها قريبا من اهتمامات علم النفس عموما والطب النفسي خصوصاً. لقد سخّرت قدرتها الفلسفية لخدمة النساء في بلدها حيث اكدت على كرامة ودعوة المرأة في ضوء الإيمان المسيحي. لقد ردّت بقوة على دعاة الفكر الرأسمالي المادي المبني على الإستغلال والمضاد للعائلة بحجّة مساواة المرأة بالرجل في كل شيء.

أكدت أديث أولاً على ضرورة تثقيف المرأة، ورفضت الدعوات القائلة بعدم وجود اختلافات بينها وبين الرجل. فقواعد واصول حقيقة الإنسان الأنثى تختلف عن الرجل لأن لكل جنس أونطولوجية خاصة (علم وجود خاص). وما ساعدها على الوصول الى تفسير مسيحي لكيان المرأة هو دراستها لفلسفة القديس توما الإكويني الذي اكد على الوحدة الجوهرية لدى الشخص، وكذلك وحدة الجسد والنفس ما دام الجوهر مركباً من المادة والصورة (form and matter) . كما إن المادة هي ما يميز الكيان البشري عن الآخر، الجسد هو اساسي للشخص وليس ماكنة أو صَدَفة (قشرة) للنفس. ومن الجدير بالذكر هنا إن القديس توما كان قد اعتمد على فلسفة أرسطو في هذا الأمر.

اعلنت أديث إن هناك سمة فريدة للنفس البشرية وأمكانياتها، وهي مشتركة مع كل عضو في هذا النوع. فعقليا النفس لها حرية الإختيار. لكن إن كانت – أي النفس - شكل للجسد وشكل للإنسانية المتفردة بكونها متحدة بهذا الجسد، فنفس المرأة لها تميّز روحي نوعي يختلف عن ما هو لنفس الرجل. هي لم تجادل بأن طبيعتها العضوية مقدّرة (أي مهيأة مسبقاً)، ولكن الإختلاف الفيزيائي بين بينها والرجل يؤشر خصوصية شخصيتهما. إن جسد الأنثى يعطي إنطباعاً لطبيعة تحمل كل الصفات النوعية الخاصّة بكل النساء ولكنه مختلف عن الذكر بشكل متميز. رأت أديث هذه الإختلافات كمتممة لا كمتعالية في القيمة، لذلك هناك طريقتين ليصبح الإنسان إنساناً، أما كرجل أو كإمرأة.

نادت أديث بالعلاقة ألمتآلفة بين الجسد والنفس وأيدت النظريات التي تركز على أنواع الشخصية بدلاً من التركيز على السلوك. وقبلت بوجود اختلافات بين الذكور والإناث حتى في الحس العام. وهذا ما جعل أطروحتها غير مقبولة اليوم من قبل دعاة مساواة المرأة بالرجل ولكن افكارها مقبولة لدى الأب والأم الذين لهما طفل ذكر وآخر أنثى في البيت حيث يتلمسان الواقع كل يوم، لأن الإختلافات واضحة بين البنات والأولاد في مرحلة الطفولة.

لقد تأملت في قصص الخلق بسفر التكوين لتصل الى دعوة المرأة الطبيعية. المرأة لها دعوة للشركة والأمومة. المرأة هي اكثر من مجرد عاملة كما تريدها الحضارة المادية الغربية، هي شريكة مهمة في حياة الرجل. تقول أديث: " المرأة طبيعياً تركز على ما هو إنساني، وتميل لإقامة علاقة أهم من العمل والنجاحات والشهرة". إن صفة الأمومة للمرأة هي دعوة تتضمن مساعدة الآخرين لينمّوا إمكانياتهم، وبالنسبة للمتزوجين فإنها تضمن وجود الأزواج والأولاد. الأمومة دعوة كونية اكبر من كونها مهمة (واجب) فقط. لذلك هي مهمة ليس فقط للمتزوجين بل لكل الناس. وبخصوص المرأة ننوه هنا الى رسالة البابا يوحنا بولس الثاني. هذه الدعوة الى كون المرأة حقيقة كونية من أجل إعادة أنسنة العالم الذي تسيطر عليه الماديات (طالع رسالته في كرامة المرأة).

ترى أديث إن للمرأة دعوة للشركة مع الآخر، صحيح للرجل دعوة أيضاً ولكن للمرأة خصوصية لأنها موجهة نحو الانسان والشخص ولها قدر كبير من العاطفة مما يؤهلها للتأثير على الآخر في حالة الزواج أو غير الزواج حيث تستطيع التسامي والإنفتاح نحو الحب الإلهي .

هذه النعمة الكبيرة للمرأة جعلها قادرة أن تعمل بنجاح في كل المجالات، لا بل فإن اديث تشجع المرأة للعمل في المجال السياسي ما دامت في خدمة المجتمع والعائلة، ولكونها تحمل شهادة عن حقيقة عطاء المرأة للمجتمع ولحملها قيم روحية حيث تقول: " **إن القيم الروحية تنتج من تسامي الوصايا. صحيح كل شيء يسير نحو الفناء، لكن المحبة غير ذلك لأن الله محبة**" وعندما وصل هتلر الى السلطة قالت " لقد حانت الفرصة للمرأة الكاثوليكية أن تقف مع أمنا مريم والكنيسة تحت الصليب".

بخصوص المشاركة بين الرجل والمرأة أكدت على وجود نقاط مشتركة واخرى غير مشتركة: " **ممكن الإشتراك بخبرة الآخر ولكن لا نستطيع المشاركة بصفاته الشخصية الفردية الأساسية لأن**

وعيي مرتبط بخبرة الماضي مع ما هو ظاهر لي" . ناقشت أديث مسألة التعاطف فقالت إن التعاطفEmpathy يعني كيف تجد نفسك ضمن خبرتك بالتركيز على فهم الذات الإنسانية، وهذا يتطلب تركيزا لفهم الأنا لأنها لا تظهر للعيان على حقيقتها. إن هذا يعني زيادة الصعوبة لدى الإلتقاء بالناس لأنّ كل واحد منهم يحمل أنا خاصّة محمّلة بخبرات متنوعة ظاهرة. هنا تؤكد أديث على ضرورة فهم الآخر عبر نظرية التعلم واكتساب المعرفة، والتأكيد على فلسفة العلوم التي ساهم بها هوسيرل كثيراً حيث يهتم الباحث بكيفية كون البيانات بيانات. فهل الشخص يحصل عليها عبر التجارب أم بإضافة التفسير، لأن التفسير من قبل الشخص قد يؤدي الى التحيز، فالمعرفة بين شخصين بحد ذاتها ليست معلومات خاصّة لأنها تهدف دراسة أسباب حالة ما حصلت، ولكن يجب التركيز على العوامل الثقافية والشخصية المسببة، أي البواعث، وهذا يعني إن الحقيقة تسير في طريقين. كنتيجة لذلك ولأجل أن يلتقي الطريقان، تؤكد أديث على العلاقة والمعرفة وفق المفهوم المسيحي من خلال المحبة في العلاقة بين الناس، المحبة المنفتحة نحو التسامي أي المرحبة بالجانب الروحاني للشخص ذكراً أو أنثى حينئذ يتم تجاوز قوانين المادة الجامدة.

خلاصة

إن لأفكار القديسة أديث شتاين اهمية كبيرة في عالم اليوم: فمن جهة نرى ما يحصل هنا وهناك من سوء فهم كبير وتشويه واستغلال للعلاقة بين المرأة والرجل؛ لقد ابتعدت عن المفهوم المسيحاني للعلاقة كما أرادها يسوع المسيح . ومن جهة أخرى، العالم صار قاب قوسين من أن يكون شبكة معلومات من سلاسل متصلة تنقصها نفحات الروح القدس، فعلينا أن نؤكد على القيم في هذا العالم من خلال التأكيد على البواعث المسببة لما يحصل اليوم وتحليلها ونقدها وتقييمها وفق ما علمه ربنا.

العالم بحاجة الى لمسة شفاء كي ينال الكل كرامته ، وهذا يتم من خلال احترام الإختلافات بين الرجل والمرأة والتركيز على ما هو إنساني متصل بالخالق الذي دعا كليهما الى التكامل عبر الخبرات والمعرفة المشتركة والعلاقة الحبية.

نشرت في مجلة نجم المشرق العدد 49 في سنة 2009

المصادر:

اعتمدت على كتيب صدر عن حياة القديسة تحت عنوان Edith Stein للكاتب مونك ماثيو صدر من قبل جمعية الحقيقة الكاثوليكية سنة 1997 في لندن إضافة الى مواقع الكترونية عديدة تتحدث عن القديسة الشهيدة يستطيع القاريء أن يصل اليها بسهولة عبر الإنترنت.